الحواضر والمدن في بلاد المغرب القديم

المحاضرة 02: تطور المستوطنات قبل الاحتلال الروماني

إن العمران في بلاد المغرب القديم يعد احد الجوانب الحضارية المهمة التي لاقت اهتمام كبير من طرف سكان تلك المرحلة القديمة من التاريخ، ولِكون بلاد المغرب شهد توافد شعوب عديدة على ارضيته فكان منطقيا بروز حضارات عديدة بمدنها وعمائرها المختلفة حسب نمط كل شعب من الشعوب منها الفينيقية البونيقية النوميدية، الرومانية ، البيزنطية الوندالية، هذه الحضارات التي تركت بصمة في مجال العمران والبناء كإنشائها للمدن بنسيجها العمراني و المعماري و الأمثلة عديدة بمعنى بقاياها الاثرية خاصة الفترة الرومانية البيزنطية منها. لنبدأ بالفترة الفينيقية ، البونيقية ، النوميدية ليليها الرومانية ثم البيزنطية.

و التحضر كظاهرة اجتماعية تتجسد بصورة اساسية في مظاهر الابداع المختلفة في شتى مجالات الحياة . و قد اشار ابن خلدون في مقدمته الى ان العنصر الرئيسي للحضارة هو:" انشاء المدن و البلدان و الامصار ..."، اذن فإنشاء المدن بقصورها و معابدها و قلاعها و اسوارها و منشآتها المائية المختلفة يعكس دون شك درجة تطور المجتمع و رقيه.:

لما تأسست قرطاجة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل أهلها تحت طاعتهم، ومن ضمن المدن الفينيقية في الجزائر، بونة (عنابة)، روسيكادا(سكيكدة)، شولو(القل)، صلداي(بجاية)، اكسيم(الجزائر)، يول(شرشال) ولم يتجاوز الفينيقيون السواحل إلى داخل الجزائر إلا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم ومن تلك المدن تغاست(سوق اهراس)، تيفست(تبسة) التي اتخذها الفينيقيون مركزا هاما لرحلاتهم ومبادلاتهم التجارية. و كما سبق الذكر أن الفينيقيين أمة كثيرة الأسفار في البر والبحر لكسب الثروة بالإتجار، فلم تكن لها حضارة خاصة بها، ولكن يرجع إليها الفضل في نقل حضارات الأمم بعضها إلى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة، و ان أثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور.

إن قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين، وبيوتهم مبنية بالحجارة، ولها أسوار تتصل بالسقف من غير قوس وخطوط أساساتها مستقيمة.

ولقد كانت أهم مدنهم على الإطلاق – أي الفينيقيين –هي مدينة **قرطاج** التي تأسست سنة 814 ق.م، وكانت قرية صغيرة ثم أخذت تنمو وتكبر ويتسع عمرانها، و يرتفع عدد سكانها ويعلوا شأنها وصيتها حتى أصبحت فيما بعد مركز الحضارة، وملتقى التجارة العالمية، وعاصمة الشمال الإفريقي كله، وخلفت مملكة صور في مستعمراتها ومراكزها التجارية وفي السيطرة البحرية والنشاط التجاري، ومدت نفوذها على المناطق المجاورة شيئا فشيئا، ولقد استفاد السكان المحليين من هذه المدينة وورثوا عنها شيئين هامين هما :حياة المدن بما فيها من ضوضاء وترف ونعيم، والخضوع لحكومة ذات نظم وقوانين إدارية اكتسبت صفة الدولية العالمية بمرور الزمن، وكانوا قبل تأسيس قرطاجة يعيشون حياة البداوة في مجموعات خاصة موزعة هنا وهناك وفق النظام القَبلي الضيق. الحقيقي الذي هو كرتن و من المدن الفينيقية أيضا ؛ مدينة **قسنطينة** **(Cirta)**: يعتقد أن اسم سيرتا سامي الأصل، وأنّه تحريف للاسم الحقيقي الذي هو كرتن (krtn) ومعناه المدينة أو القلعة، ولقد أشير إلى اسم سيرتا أول مرة من قبل المؤرخين الإغريق والرومان في أحداث نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، التي جرت بين سيفاقس من جهة وجايا وابنه ماسينيسا بعد أن انحاز الرومان في حروبهم ضد التحالف القرطاجي النوميدي. والملاحظة التي يمكن استخلاصها من خلال المصادر المادية المتوفرة لدى الباحثين تشير إلى أن تاريخ مدينة سيرتا لا يتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد، ولا تستبعد أن تكون في بداية نشأتها عبارة عن مركز تجاري ليبي–فينيقي أقيم في الداخل، شأنه في ذلك شأن المراكز الليبية – الفينيقية الأخرى التي أقيمت على سواحل بلاد المغرب القديم. ضف الى ذلك مدينة **تيبازة** و فيما يخص هذه الاخيرة ؛ يعتقد بعض المؤرخين أن اسم تيبازة سامي الأصل ولم يطرأ عليه أي تغيير، و أن التجار الفينيقيين نزلوا بشواطئها بغرض التجارة وذلك يعود إلى سهولة شواطئها حيث يتوفر به الرمل مع بعض الميلان الذي يسهل عملية جر سفنهم، ويذكر المؤرخ سينتاس من أن تيبازة دخلت تاريخ المغرب منذ نهاية القرن 6 ق.م.

ولقد كان ذلك على يد التجار الفينيقيين ولقد استنتج سينتاس من أن مسافة أي محطة بحرية على التي تليها لا تجاوز إبحار يوم كامل ويقدر ذلك ما بين30 – 50 كم. و قد استفاد البربر من الفينيقيين فوائد كثيرة وجليلة بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة وهكذا تمازج البربر مع الفينيقيين في العديد من الأمور الحضارية الأخرى ومن أهمها الزراعة والصناعة).

و هكذا بعد أن تعرفنا عن المدن العمرانية في بلاد المغرب القديم على العهد الفينيقي والتي تميزت على أنها كانت بنايات على أساس تجاري ولم تكن ذو بناء يهتم بالنسق العمراني و الفني والجمال، والآن نتعرف على البناء المحلي البربري والذي يتميز بكونه بناء جنائزي و هو ما ميز العمران النوميدي في بلاد المغرب القديم. والملاحظ أن القرون التي سبقت سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، عرفت تأثر الأهالي بالحضارة الفينيقية والإغريقية اللتان كانتا تتنافسان على النفوذ في الحوض الغربي للمتوسط ومن بين ما نتج عن هذا التأثر اهتمام لدى البربر فى مجال البناء الجنائزي تجسد فى استيراد مظاهر الفنون المعمارية كتقنيات البناء والزخرفة، وكذا مختلف الأشكال الهندسية التي لاقت رواجا كبيرا.

و من الشواهد المعمارية للعمارة الجنائزية النوميدية والتي لا تزال موجودة لحد الآن، الأضرحة و فيها **الأضرحة الملكية المستديرة والهرمية(البازينية)**، ومن أهمها **ضريح المدغاسن** على بعد 30 كم من الناحية الشمالية لمدينة باتنة. و **الأضرحة البرجية**؛ و هي الأكثر عددا وتكون على شكل صومعة ذات أصول شرقية قديمة تتشكل من عدة طوابق، توضع على مصطبة سفلى وتنتهي بهرم صغير وهي قسمين فالاول منه؛ **ذات تصميم مربع و الثاني ؛ ذات مخطط سداسي لزوايا مع جوانب تتعاقب في الانحناء والاستقامة** و من امثلة الاضرحة البرجية ؛ ضريح سيغا(غرب الجزائر)و صومعة الخروب بقسنطينة الذي يرتفع فوق هضبة.

و عن العمران النوميدي نذكر من اهم مدنها أي المدن التي كانت عامرة وآهلة بالسكان النوميد؛ **مدينة سيرتا** و التي تأسست في العهد الفينيقي، وهي واقعة على جبل حجري

مرتفع يحيط في واد مساغا من كل جهاته، ولقد وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها، وذكر المؤرخ أبيان أن الملك مسيبسا حصنها تحصينا لا يمكن لأحد أن يفتحها عنوة، و يضيف البكري ان هذه المدينة في عهد ملوك البربر الأوائل كانت في تقدم ورقي من حيث التجارة والمنشآت البنائية الأنيقة والمعارف، فكثر روادها واتسع عمرانها، لتعرف نوع من التقهقر و الركود في عهد هيمصال الثاني. تأتي المدينة الثانية و هي **مدينة يول(شرشال)**؛ وتعد من المراسي الفينيقية، أسسها الفينيقيون ثم دخلت في أيدي البربر و أول من اتخذها عاصمة من ملوكهم هو بوكوس الثاني، وفي عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة، بني بها المباني الجميلة والقصور الأنيقة وأثارها تدل على عظمتها.

و ما يميز المدن النوميدية أنها اتخذت على المدن الفينيقية وكانت متممة لها ومكملة لها وسنجد الرومان كذلك يتخذون من هذه المدن مراكز عمرانية هامة وذلك يعود إلى الموقع الاستراتيجي الذي تتميز به هذه المدن.